القصة الشهرية

فـــــــــــلورا ...

نحن الآن فى القرن التاسع الميلادى وفى عهد من عهود المدنية العربية والحضارة الإسلامية ، اللتين نشرا لواءهما على الأندلس وغمرا ربوعها من الشمال إلى الجنوب .

نحن فى عهد السلطان عبد الرحمن بن الحكم الذى ولى الملك فى العام الثانى والعشرين وثمانمائة ، بعد أن توفى (الحكم) فى عام ما هدأ ، والأندلسيون متمتعون بالحياة الصحيحة ، والحرية المطلقة ، فترسم ابنه عبد الرحمن خطواته ، واقتفى أثره ، عمل بالكتاب والسنة فتسامح مع المسيحيين وأباح لهم الأقامة بين المسلمين والحياة إلى جوارهم ؛ لهؤلاء إعتقادهم ولأولئك دينهم ، فعاشوا عيشة سمحة مطمئنة راضية ، فحمد المسيحيون للمسلمين هذا التسامح وراحوا يبتهلون إلى الله أن يثبت أقدامهم ويؤيد ملكهم ويبسط لهم النعمة والسلطان .

كان هذا الشعور عاما بين المسيحيين إلا أن زعماءهم كانوا يبطنون شيئاً آخر يخفونه عن القريب والبعيد ، فلا ينطلق به ألسنتهم إلا إذا استقاموا للصلاة فى المعابد والكنائس ، وأخذ رهبانهم وقسسهم يدعون الله أن يعيد الأندلس للأندلسيين ، وأن يعيد العرب إلى أوطانهم أو يبيدهم عن آخرهم

وكانت بين هؤلاء طائفة أفعمت قلوبهم بالحقد على العرب وشغلت أدمغتهم عوامل الانتقام منهم ، وودوا لو أحرقوا أحياء حتى لا يروا المسلمين يروحون ويغدون فى أنحاء البلاد وأرجائها وظلت هذه الطائفة تنشر دعايتها بين القوم وتبثها فى أنفسهم حتى استحال الأمر إلى رغبة شديدة فى التضحية لتخليص البلاد من أيدى المسلمين الذين عادوهم وأقاموا العدل بينهم ، حتى لقد قال المؤرخون وفى طليعتهم ستانلى لينبول « إنهم كانوا أجهل بالدين المسيحى من المسلمين ، وأقل منهم إعتداداً بنظرياته ، فالمسلمون ما كانوا يذكرون اسم عيسى إلا مشفوعا بالصلاة والسلام عليه ، فما كان يحق لهم وهم فى كنف العدالة والرحمة والمساواة أن يرتكبوا ما ارتكبوا من تمرد سموه تضحية » .

وكان زعيم هذه الحركة الراهب (يولوجيوس) وهو سليل أسرة قديمة من أسر قرطبة ،

فمضى سنة كاملة صائما وكانت يؤيد حركته الشاب « ألفارو » أحد أثرياء المدينة

* * *

كان « ألفارو القرطبي » شابا بهي الطلعة ممشوق القوام ، لطيف المعشر ، حلو الحديث ، اجتمع ذات يوم بالراهب (يولوجيوس) ليدبرا مؤامرة واسعة النطاق على المسلمين ، وكان (ألفارو) قد هام بفتاة بارعة الجمال أبوها مسلم وأمها مسيحية ، وكان الراهب يعلم بعاطفة الشاب ، فأراد أن يملك عليه نفسه ويخضعه لسيطرته ، فقال للشاب الطائش المزهو بنفسه . « لماذا لا تدبر لهؤلاء الأعداء وقد اقتطفوا أحلى ثمار الأندلس ، ألست ترى أنهم سيطروا حتى على الجمال فى هذه البلاد ؟ أليست مثلا الفتاة (فلورا) الجميلة الرشيقة ضحية من ضحاياهم » ؟

سرت فى جسد الشاب رعدة قوية حين ذكر الراهب الفتاة فلورا ، وود لو طال الحديث عنها ، وهنا أدرك الراهب ما يجول بخاطر الشاب فلم يمهله بل أردف :

« وبهذه المناسبة أريد أن أتحدث إليك عن رأى لعله يصادف منك الرضا ، إن هذه الفتاة هى فى الواقع مسلمة ، فنريد أن نغريها حتى تنضم إلينا لنستخدمها فى دعايتنا ، ولندفعها يوما إلى التمرد حتى إذا قتلها المسلمون كان أبشع يوم فى تاريخهم ، أريد أن أستدرجها الآن لمكان معين حيث يختطفها رجال أشداء فيحملونها إلى الدير ثم عليك أن تتم بقيــة الرواية » .

تنفس الشاب الصعداء وأقبل على الراهب حاثا إياه أن يعجل بتنفيذ هذا الرأى السديد وأن يعد العدة للعمل ، وغادر الشاب الدير بعد أن منح الراهب مقدارا كبيرا من المال ما كان يمنحه إياه لولا هذه الفرصة السعيدة

أرخى الليل سدوله ذات ليلة من ليالى رمضان فى العام الثالث والعشرين بعد الثمانمائة وكانت مدينة قرطبة تلبس حلة من البهاء والجلال إذ كان سكان المدينة يقضون سهراتهم خلال الشهر الكريم فى مجالس العبادة والأدب ، وكانوا يتزاورون إلى السحر حين يأوى كل إلى داره مستقبلا الصيام فى اليوم التالى ، وكانت الأسواق تظل عامرة طيلة الليل فيتبدل ليل قرطبة نهارا ونهارها ليلا

كانت والدة الفتاة فلورا شديدة الحب لزوجها أبى الحسن بن عقال ، مخلصة له فى حياتها الزوجية وكان أبو الحسن فى هذه الليلة مريضا يشكو آلاما شديدة فلم يسع زوجته الا أن تلازمه

إلى أحد الإطباء وكان هذا الطبيب صديقا لأبى الحسن ولكنه مقيم بطرف المدينة ، ولم تكن هناك وسيلة لدعوته إلا أن ترسل إليه الفتاة (فلورا)

وكان الراهب (يولوجيوس) فى الوقت نفسه قد بث العيون والارصاد حول دار أبى الحسن وألف عصابة قوية من الرهبان الأشداء ليخطفوا الفتاة متى حانت الفرصة، فلما خرجت تلك الليلة لاستدعاء الطبيب تبعتها العصابة حتى سلكت الفتاة طريقا من الطرق التى تصل بعض أحياء المدينة بأحد أطرافها وهناك أطبقت عليها سواعد قوية وكتمت أنفاسها وحملتها معصوبة الفم إلى الدير فاستقبلها الراهب وهدأ روعها ، وأزال مخاوفها وأفهمها أنه لا يقصد بها السوء ولكن يريد أن يقنعها بأنها مسيحية الأصل فيجب أن تدين بالمسيحية .

ظلت الفتاة (فلورا) تبكى وتعول طيلة ليلها لا تعرف مصيرها ولا مصير أمها وأبيها اللذين غادرتهما وراءها ، فلما تنفس الصباح دخل عليها الراهب فى معقلها ، ومعه الفتى (ألفارو) فسألته الفتاة ماذا يقصد من اعتقالها ، فإن كان لتعتنق المسيحية فهو واهم مغرور ، فلن يثنيها مثل هذا الاعتقال أو ما يتبعه من تعذيب عن الثبات على عقيدتها والتمسك بدينها ، فأجابها الراهب بأنه ما قصد إلى شيء من هذا وإنما قصد إلى سعادتها وخيرها ، فإن الشاب (ألفارو) وهو من أغنى أغنياء الاندلس — وكانت الفتاة تسمع بشهرته وصيته — يريد الزواج منها والاقتران بها وإن العقد عليها سيتم فى اليوم التالى

دهشت الفتاة لهذا الكلام وصممت على المقاومة للنهاية ، لكن الراهب تركها مع الشاب ألفارو ومضى فى سبيله ، فاستعطفها الشاب فبدت له كالنمر الجريح الذى يلقى بنفسه إلى النار ليثأر لنفسه ، ولكنه هددها فقاومته ثم نشب نضال عنيف بينهما

تركها الشاب طول يومها ثم عاد فى المساء ولم تكن الفتاة قد تذوقت شيئاً مما قدم إليها من زاد ، فعمد الراهب الشرير إلى وسيلة وحشية لنيل مأربه فلم يقدم إلى الفتاة شيئاً من الماء حتى اضطرت إلى الاستسقاء من حارسها فقدم لها قدحا من الخمر القوية ، فأبت ، إلى أن ألح عليها الظمأ فلم تقو على مقاومته وشربت القدح لتنقذ حياتها

وبعد برهة دخل عليها الشاب ألفارو مرة أخرى فألفاها تترنح فأغلق الباب وظل معها فى نضال عنيف إلى أن سقطت الفتاة بين يديه واهية القوى فارتكب جريمته الشنعاء وترك الفتاة كأنها جثة هامدة .

* * *

ولنعد إلى والدة الفتاة (فلورا) فإنها حين طالت غيبة ابنتها استصرخت جيرانها

وخرجوا جميعا إلى طرقات المدينة وساحاتها يبحثون عن الفتاة ولما أعياهم البحث أبلغوا رياسة الشرطة الأمر .

* * *

عادت الفتاة إلى رشدها بعد الحادث بقليل فألفت نفسها صريعة الوحشية والجريمة فاستولى عليها اليأس والقنوط ، ولما عاد إليها الفتى (ألفارو) وجدها محزونة مكتئبة ، فظل يمنيها ويصور لها السعادة والخيال الرائع إلى أن شعر منها باليأس والاستسلام وعندئذ بعث فيها الأمل إذ قال لها أنه مستعد للتحول عن دينه واعتناق الإسلام حتى رضيت بالزواج منه ، قبلت الفتاة هذا الحل فأخرجها من معتقلها وساقها إلى الراهب الشرير وقد عول الشاب على نقلها خفية إلى قصره فيكون قد فاز بكل أمنيته سواء أحقق أماني الراهب أم لم يحققها .

ظلت الفتاة في يأسها لاتعرف مصيرها إلى أن وصلت إلى قصر الشاب الثرى وهناك ظل الشاب إلى جانبها يلاطفها ويمنى بها فتظاهرت له بما أراح نفسه وطأمن جنانه، وعندئذ أيقن من أنه استهوى الفتاة وسيطر عليها .

* * *

مضت أيام على هذا الحادث الشنيع، وما زال شرطة قرطبة تواصل البحث عن الفتاة ، وكان أحد هؤلاء الشرطة يسكن حى الجامع الكبير ، وكان كل ليلة يصلى الفجر فى هذا الجامع ويحمل قليلا من الخبز لعجوز فقيرة اعتادت صلاة الفجر أيضا فى نفس الجامع، وقد انقطعت هذه العجوز عن الحضور للصلاة منذ ليلة الحادث إلى مابعده بأيام خمسة ؛ فلما رآها الشرطى فى اليوم السادس وجدها معصوبة الرأس ماتكاد تخطو خطوة حتى تتأوه وتئن، فسألها الشرطى عما ألم بها فقالت له إن جماعة من الأشقياء كانوا يعتدون على إحدى الفتيات ذات ليلة ، فرأتهم وهى قادمة من طرف المدينة فنهرتهم فهوى أحدهم بعصاة على رأسها فشجه فآوت إلى منزلها أياما خمسة ، ولكنها عرفت ذلك الشرير الذى اعتدى عليها فهى تفكر فى أن تشكوه إلى قاضى القضاة فهو الراهب المطلاق (سانكو)

ذكر الشرطى فى هذه اللحظة الفتاة (فلورا) ورجح أن تكون الفتاة هى فلورا المعتدى عليها ، فلما كان اليوم الثانى أبلغ رؤساءه الأمر فعقدوا النية على تفتيش الدير والقبض على الراهب سانكو؛ فلما قصدوا إليه وفتشوه بحضور والدة الفتاة ، تعرفت المرأة على قطعة من ثوب وجدها الشرطة ملقاة إلى جانب فراش من القش فى أحد الأقبية فقبضوا على الراهب

لم ينتصف النهار حتى أبلغ أحد أهالى قرطبة دائرة الشرطة بأنه عثر على جثة فتاة قتيلة تحت شرفات قصر (الفارو) الثرى فتصـدوا إلى المكان الذى عينه مخبرهم فوجدوا الفتاة هناك جثة هامدة ، وكانت هذه الفتاة قد تظاهرت بالخضوع للشاب ألفارو فلما غادرها وحدها ألقت بنفسها من النافذة لعلها تستطيع الفرار لكنها لاقت حتفها ولم يفطن إلى ذلك أحد من سكان القصر .

وعندئذ قبض على الشاب ألفارو أيضا واستجوب خدم القصر الذين قرروا الحقيقة فسيق الجميع إلى المحاكمة واتهموا بالتآمر على اغتصاب الفتاة وقتلها كما اتهموا بالتآمر على سلامة الوطن .

كان العثور على جثمان الفتاة بعد أيام خمسة من اختفائها وكان الحـكم بإعدام هؤلاء المتهمين بعد أسبوع من هذا اليوم .

كتب المؤرخون هذا الحادث لـكن أغلبهم ذهب إلى أن الفتاه فلورا أعدمت لقذفها فى الدين الاسلامى فهى شهيدة من شهداء الأندلس ، وحاول البعض الآخر أن يعزو إعدام الرهبان الثلاثة إلى مثل هذه الجريمة ، ولـكنها أساطير ليس لها من الحقيقة نصيب ، والواقع أن هذه القصة التاريخية هى إحدى مآسى الأندلس وإحدى الوقائع الدالة على ما كان عليه العرب من تسامح وما قابل به الأندلسيون هذا التسامح من تمرد ونكران .

« ط »